المشاهدة والمعاصرة فى التدوين التاريخى عند لسان الدين بن الخطيب

(٧١٣ هـ / ١٣١٣م - ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)

إعداد الباحثة

انتصار عبد النبى عبد السلام

طالبة دكتوراه

كلية البنات - جامعة عين شمس

المشاهدة والمعاصرة فى التدوين التاريخى عند

لسان الدين بن الخطيب

(٧١٣ هـ / ١٣١٣م - ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)

شهد القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، ازدهاراً واسعاً، ونضجاً كبيراً فى التفكير والأدب، وفيه ظهرت طائفة من أعظم المؤلفين والمفكرين والشعراء والمؤرخين الذين تميزوا بتكوينهم الثقافى الجيد، من حيث تعليمهم الشريعة، والدراسات القرآنية، وتراث الأدب العربى، والنحو، وأصول الدين، والفلسفة والتاريخ، كذلك كان المؤرخون أفراداً نفعيين يميلون إلى الفعل، فقد عملوا أئمة، ودعاة، أو قضاة، كما عملوا فى إدارات البلاط التى ترسم السياسات، وفى كتابة المراسلات وجمع النصوص. وقاموا بمهام دبلوماسية، وقدموا المشورة للحكام[١].

وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل، من المفكرين والمؤرخين، إذ يعتبر آخر المؤرخين الكبار فى أسبانيا الإسلامية، وإذا كانت الأندلس تزخر بهذه النوعيات من المؤرخين، فإن ابن الخطيب يأتى فى قمة هرم الأعلام الأندلسية، وهو أكبر كاتب أبدعته الأندلس فى عصورها الأخيرة[٢]. حيث ملأ الدنيا شعراً وأدباً، فما من مجال إلا وله فيه ذيل، وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب، مثل الكتابة العلمية والتاريخية والسياسة والعلوم والتصوف[٣]. إذن فهو موسوعة أدبية علمية إنسانية، لم تتوفر كثيراً فى الأندلس، وهو عقل الأندلس وثمرة حضارته[٤].

ولا أدل على ذلك من تلك الدراسة المستفيضة التى خصصها المقرى فى كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" لدراسة أحوال ابن الخطيب وتراثه الأدبى والفكرى. "القسم الثانى - فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب، وذكر أنبائه التى يروق سماعها، ويتأرج نفحها، ويطيب، وما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد،

---

(١) مايا شانز ميللر: ابن خلدون ومؤرخو، القرن ١٤، ترجمة قاسم عبده قاسم، ابن خلدون (البحر المتوسط فى ق ١٤)، معرض بالقصر الملكى باشبيلية، سبتمبر ٢٠٠٦، ص ٣٦٨.

(٢) عبد السلام الهراس: ابن الخطيب المكرم بالمغرب ومعاناته، مجلة الفيصل، ع ٣٧٧، السعودية، ديسمبر، ٢٠٠٧، ص ١٣١؛ شوقى ضيف: لسان الدين بن الخطيب الكاتب، دراسات عربية وإسلامية، ط١، المطبعة الكاثوليكية، لبنان، ١٩٨١، ص ٢٠٥-٢٠٦؛ لويس سيكودى لوثينا: وثائق عربية غرناطية لم تنشر بعد، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مج٤، مدريد، ١٩٥٦، ص ١٦٩.

(٣) عبد الله كنون: الشعر الأندلسى، مجلة المجمع العلمى العربى، ج١، مج٣١، دمشق، ١٩٥٦، ص ٣٨٧-٣٨٨.

(٤) مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس، ط١، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٣١٨.

والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية، موصلة إلى جنات أدب قطوفها دانية وكل غصن منها رطيب"[٥].

فكان أشمل كتاب تناول شخصية ابن الخطيب من جميع جوانبها، وظهر ذلك واضحاً فى تأثر المقرى بأسلوب ابن الخطيب رغم الفاصل الزمنى الكبير بينهما وهو قرابة ثلاثة قرون. حيث يقول المقرى فى حق صاحبه. "المثل المضروب فى الكتابة والشعر، والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تُخبر عن ذلك، ولا ينبئك مثل خبير، علم الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذى خدمته السيوف والأقلام، وغنى بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام. واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام"[٦].

كذلك أشاد به أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر قائلاً: هو "شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض... وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين بالإطلاع على العلوم العقلية، والإمتاع بالفهوم النقلية"[٧] إلى غير ذلك من الأقوال، التى أثنت على ابن الخطيب، ومعارفه، فقد كان البوتقة التى انصهرت فيها المعارف على اختلاف أنواعها حسب قول الدكتور محمود على مكى حينما قال: "وهو يعتبر بحق، أعظم مؤرخى عصره، وواحداً من أعظم كتاب الأندلس"[٨].

ولعل أدق وصف قدر مواهب ابن الخطيب الخصوصية البارزة، هو وصف صديقه ابن خلدون حينما قال: "كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله فى النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يُهتدى فيها بمثل هداه"[٩]، وهى أوصاف يجب أخذها بعين الاعتبار، لأن ابن خلدون كان ملازماً لابن الخطيب، وعلى اتصال دائم به. ووصفه أيضاً الدكتور حسين مؤنس مشيراً إلى الملكة التى لولاها لما عرفنا ابن الخطيب، وهى ملكة الكتابة التى أذكتها الرغبة وعدم الفتور حيث يقول: "لسان الدين بن الخطيب كان رجلاً واسع الثقافة،

---

(٥) المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، مج١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ص ١١٥.

(٦) المقرى: نفح الطيب، مج٥، ص ٧.

(٧) إسماعيل بن الأحمر: نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٨-٥٩؛ المقرى: أزهار الرياض فى أخبار عياض، تحقيق: على عمر، ج١، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٦٣-١٦٤.

(٨)ابن حيان: المقتبس، تحقيق: محمود على مكى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١١٦.

(٩) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦ (سلسلة الذخائر)، ص ١١٥؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٧، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٥٢٧.

متعدد الجوانب والاهتمامات الفكرية، فكان شاعراً مترسلاً مؤرخاً جغرافياً، طبيباً، عالماً بالموسيقى.... ومن حسن الحظ أنه كان مولعاً بالكتابة، فألف فى ذلك كله وأفاض، ولم يترك فكرة دارت فى ذهنه إلا كتبها"[١٠].

وقد تعددت مصادر تدوين التاريخ، وتنوعت موارده، إذ عمد كل مؤرخ إلى استقاء مادته العلمية، وأخباره التاريخية من المصادر المتاحة له. وهى مصادر كثيرة، تتنوع بين مصادر مباشرة تتمثل فى نقل الخبر حياً، عن طريق المشاركة فى الحدث، أو مشاهدته، أو الوقوف على آثاره، أو سماعه من ثُقات توافرت فيهم شروط الضبط والعدالة، ونسبته إليهم. وذلك ما يطلق عليه بالمشافهة. أما المصادر غير المباشرة كالمصادر المدونة، وهى المصادر المكتوبة التى تتفرع أيضاً وتنقسم إلى مجموعة من المصادر التى يمكن للمؤرخ أن يستمد المعلومة التاريخية منها، سواء تلك المصادر التاريخية المختصة، أو المصادر ذات الصلة، وهى المصادر المساعدة من علوم ومعارف أخرى، تثرى الرواية التاريخية، وتضيف إليها معلومات ودعائم مهمة[١١].

وقد اتبع الأندلسيون فى معالجة تاريخهم تلك الطرق التى اتبعها إخوانهم المشارقة أيضاً، والتى تقوم على المشاهدة العينية، وتحرى الحقائق فى جمع المعلومات، أو النقل والاقتباس، أو الاستعانة بالوثائق والمراسلات والآثار المادية، أو على تحليل الأحداث والتعرف على عللها، والنفاذ إلى أسرارها.[١٢] وهو ما قام به ابن الخطيب فى كتاباته التاريخية، حيث تنوعت موارده ما بين مصادر مباشرة تتمثل فى العيان والمشاهدة والمشافهة، ومصادر غير مباشرة تتمثل فى المصادر المكتوبة الخاصة بالمؤرخين السابقين عليه، والتى استقى منها مادته التاريخية الخاصة بالفترة التى لم يعاصرها. فضلاً عن الوثائق والمكاتبات وغيرها من المواد التاريخية. وتهيأ لابن الخطيب بحكم عمله فى البلاط الغرناطى فرصة كبيرة للحصول على المعلومات من منابعها الأصلية. الأمر الذى أضفى على عمله التاريخى ثقة ومصداقية، جعلته من أهم المصادر التى تؤرخ لبنى نصر فى هذه الفترة.

وسنتناول فيما يلى مشاهدات ابن الخطيب والأحداث التى عاينها. بل وشارك فى صنعها.

المشاهدة والمعاصرة:

تتطلب المشاهدة والمعاصرة، والتأريخ لأحداث العصر جهداً كبيراً من المؤرخ لتدوين ما شاهده. كما يقتضى عليه – كما فى حالة ابن الخطيب – أن يتجشم عناء التجوال فى البلاد، والسير فى الشوارع والدروب، والمشاركة فى مواقع الأحداث، معتمداً بذلك على ملاحظاته

---

(١٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، ط٢، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٥٥٣.

(١١) رضا عبد الحكيم رضوان: أدب الرحلات وعلم تقويم البلدان فى التراث الإسلامى، ص ٣٩، مجلة تراث، ع ٥١، الإمارات، فبراير ٢٠٠٣.

(١٢) أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، مج١، ع ٢، الكويت، سبتمبر ١٩٧٩، ص ٧٢.

الخاصة فى وصف البلاد وخصائصها، وهو ما يجعل تسجيل تلك الوقائع والآثار والتعقيب عليها أكثر واقعية. وأكثر دقة وأوثق من التواريخ المنقولة لكون دراستها تمت على الطبيعة بالزيارة والمعاينة.

فالمؤرخ الذى يعيش فى زمن الأحداث التى يقوم بتأريخها، أو زمن قريب من زمن حدوثها، أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بألوانها الطبيعية، على اعتبار أن المعاصرة لزمن الأحداث تمكن المؤرخ من الاستفادة بما لديه من الوثائق والرسائل. والمعاينة والتحقق يجنبان المؤرخ من الوقوع فى الأخطاء التى وقع فيها من لم يحذ حذوه(١٣).

فمن الملاحظ فى تواريخ الأسر المالكة أن أحسن أجزائها هو الجزء الذى يتصل بحياة السلطان الجالس على العرش، فى وقت تدوين المؤلف لكتابه، أو الجزء المتصل بأسلافه المباشرين، إذ تتوفر عنهم لدى المؤرخ معلومات كثيرة عرفها بنفسه أو زوده بها معاصروه وكان على اتصال شخصى بالمترجم لهم، والقرب منهم، والتتبع الحركى لهم(١٤).

ولفظة "أعاينه" تدلنا على منهج سليم من مناهج كتابة التاريخ. فهو لا يكتفى بالسؤال والاستخبار فقط، ولكنه يمضى إلى أبعد من هذه الخطوة الهينة السهلة. فيعاين ويشاهد المشاهد والآثار، والمواقع التى على أرضها، وعلى بقعتها الأصلية. حيث تمتزج هنا المعاينة بالمعرفة، فتتكون من ذلك الحقيقة التاريخية التى ينشدها، ولا يخفى ما كانت تكلفه المعاينة والمشاهدة فى ذلك الزمن البعيد من المشقة وعناء الرحلة، ومشقة الطريق، وفقدان الأمن فى الأرباض النائية(١٥).

وبالرغم من ذلك فإنه يجب الحذر بشأن كتابات المؤرخين المعاصرين للأحداث؛ لأن لها عيوباً جسيمة بالرغم من مميزاتها. فقد تكون ستاراً يمنع المؤرخ من قول الحقيقة، ويغض بصره عن رؤية الأمور على وجهها الصحيح، تبعاً لاعتبارات تتصل بالتقرب إلى الحكام، ومصانعتهم، والرهبة منهم، والخوف من سلطانهم ودولتهم، وتبعاً لاعتبارات أخرى تتصل بما يدور بين حاشية البلاط السلطانى من علاقات ومعاملات. وما يقع بينهم من موادات وعداوات؛ تحمل المؤرخ على المجاملة وتبعده عن العدالة والضبط اللازمين له، وتفضى به إلى الإغضاء عن الهفوات، وتُسكت لسانه عن النقد النزيه، والحكم الصحيح على الأشياء، حرصاً على التقرب من ولاة الأمور من جهة، أو خوفاً منهم من جهة أخرى(١٦).

---

(١٣) السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٦٧، ص ١٢٤؛ رضا عبد الحكيم: أدب الرحلات، ص ٣٩.

(١٤) ليفى بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، ترجمة: عبد القادر الخلادى، مجلة دعوة الحق، ع١، السنة ١٧، المغرب، ١٩٧٥، ص ١٨٧؛ محمد عبد الغنى حسن: التاريخ عند المسلمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٤-٦٥.

(١٥) محمد عبد الغنى حسن: التاريخ عند المسلمين، ص ٥٣-٥٤.

(١٦)محمد عبد الغنى حسن: التاريخ عند المسلمين، ص ٥٥.

وتعتبر المشاهدة والمعاصرة من المصادر التى أمدت ابن الخطيب بمادة حسنة من الأخبار والأحداث والمشاهد. لهذا فإن ابن الخطيب هو شاهد عصره فى الكثير من الأحداث يسجلها من واقع ما شاهد. بل من واقع ما شارك به وعاصره. وهذا واضح جداً فى حديثه عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم. وعاين أحوالهم. وكذلك فى أحاديثه عن أصدقائه مثل ابن خلدون. بل وفى أحاديثه وترجماته لبعض من عاصرهم، أو وزر لهم من سلاطين غرناطة أو سلاطين المغرب ورجالهم الذين قام على خدمتهم.

وتأتى المادة التاريخية التى سجلها ابن الخطيب من واقع المشاهدة والمعاينة غزيرة، وتحتوى على الكثير من المعلومات. ولعل أطول ترجمات الإحاطة واللمحة البدرية اعتماداً على المعاينة والمشاهدة؛ هى ترجمة السلطان محمد الخامس "الغنى بالله". الذى تولى ابن الخطيب له منصب الكتابة ثم منصب الوزارة[١٧].

وفى هذه الترجمة المطولة رصد ابن الخطيب أحداثاً كثيرة منيت بها الدولة النصرية. وكذلك سجل أحداثاً وقعت للدولة المغربية المرينية. وكان ابن الخطيب أيضاً شاهداً عليها أو معاصراً لها. فهو يذكر عند الكائنة التى حلت بالسلطان محمد الخامس وتعطف سلطان المغرب عليه بقوله: "ففكت عنى أصابع الأعداء، واستخلصت من أنيابهم، ولحقت بالسلطان بوادى آش، فذهب البأس، واجتمع الشمل"[١٨]. كما يقول: "وكنت قد لحقت به مفلتاً من شرك النكبة التى استأصلت المال، وأوهمت سوء المال بشفاعة السلطان أبى سالم قدس الله روحه"[١٩] ويصف ابن الخطيب اللقاء بسلطان المغرب قائلاً: "وكان الرحيل إلى باب السلطان، تحت بر لا تسعه العبارة، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد.... يوم الخميس السادس من المحرم من عام أحد وستين بعده"[٢٠].

وعند عودة السلطان محمد الخامس إلى دار ملكه من جديد عام ٧٦٣ هـ كان معه ابن الخطيب حيث يقول: "وكان وصولى إليه معه، فى محمل اليُمن والعافية، وعلى كسر التيسير من الله، والعناية يوم السبت الموفى عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة"[٢١] وتمتلئ الترجمة

---

(١٧) ابن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف على طويل، مج٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٥-٥٠؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١١٣-١٢٨.

(١٨) الإحاطة، مج٢، ص ١٢.

(١٩) اللمحة البدرية، ص ١٢٢.

(٢٠) الإحاطة، مج٢، ص ١٢.

(٢١) الإحاطة، مج٢، ص ١٣.

بالوثائق السياسية التى سجلها ابن الخطيب، كمرسوم السلطان بتكليف ابن الخطيب نفسه بالسفارة له عند سلطان المغرب أبى عنان المرينى[٢٢].

ومن الواضح أن المادة التاريخية التى اعتمد عليها ابن الخطيب من واقع المشاهدة والمعاينة، جاءت مصطبغة بأحاسيسه وآرائه تجاه الحدث الذى يسجله، أو تجاه الشخصية التى يترجم لها. فعند الحديث عن السلطان "محمد الغنى بالله" يقول: "وهو الآن أمير المسلمين بالأندلس، جامع الشمل، وعمدة الدين، خريج الحنكة"[٢٣] كما يثنى عليه ويصفه بأحسن الأوصاف بقوله: "صدر الصدور، وعلم الأعلام، وخليفة الله، وعماد الإسلام... الذى لا تبلغ الأوصاف مداه، ولا توفى العبارة حقه"[٢٤] ثم يصف حاله بقوله: "هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة، وأسعدهم ميلاداً وولاية، قد جمع الله له بين حسن الصورة، واستقامة البنية، واعتدال الخلق... وقوة الجأش، ومشهور البسالة"[٢٥].

وعلى الجانب الآخر نجد حديثه عن السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج النصرى (ت ٧٦٣هـ)، وهو الذى جرت لابن الخطيب محنة قاسية على يديه، ومنذ مطلع الترجمة تصطبغ لغة ابن الخطيب بمشاعر البغض والكراهية الشديدة لهذا السلطان، حيث يقول: "الرئيس المتوثب على الملك...، وعاقد صفقة الخسران المبين،.... كان شيطاناً، ذميم الخلق"[٢٦]. وعند ذكر مولده يصفه بالمشئوم: "مولد هذا النسمة المشئومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة"[٢٧].

وعندما ذكر وزيره "محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى" نعته بأسوأ الصفات قائلاً: "استوزر الوزير المشئوم، ممده فى الغى، الوغد، الجهول.... الحقود على عباد الله لغير علة من سوء العاقبة،.... البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة، دودة القز، وبغل طاحونة الغدر"[٢٨]. وكذا الحال بالنسبة لكاتب سره "أبو محمد عبد الحق بن عطية" حيث يصفه "صاحبنا الفقيه الأهوج، قصب الريح، وشجرة الخور"[٢٩]. كما يذكر قضاته ومنهم شيخ ابن الخطيب أبو البركات، الذى يصفه بأنه مخدوع بزخرف الدنيا على كبره، ويدعو له بلطف الله، وأن يعود إلى رشده وصوابه[٣٠].

---

(٢٢) نفس المصدر، ص ٥، ٤٣، ٤٥، ٤٦.

(٢٣) اللمحة البدرية، ص ١٢٩.

(٢٤) الإحاطة، مج٢، ص٥.

(٢٥) نفس المصدر والصفحة.

(٢٦) الإحاطة، مج١، ص ٣٠١.

(٢٧) نفسه، ص ٣٠٦.

(٢٨) الإحاطة، مج١، ص ٣٠٣.

(٢٩) نفسه، ص ٣٠٤.

(٣٠) نفس المصدر والصفحة.

ومع أن ترجمة ابن الخطيب منقولة بتمامها من كتابه "نفاضة الجراب"[٣١] إلا أن المصدر الأصلى لهذه المادة التاريخية هى "المعاينة والمشاهدة" وكثير من ترجماته لملوك بنى نصر وكتابهم ووزرائهم قد جرت على هذا النحو. ولهذا نجد قلة اعتماد ابن الخطيب فى هذا النوع من التراجم على النقل من الكتب. فالمشاهدة والمعاينة مصدره الأوحد، إلا ما قد يعتمد عليه من أشعارهم، أو رسائلهم، أو ما نقله من أفواههم على سبيل الرواية.

وكان لترجمته لمن عاصرهم عادة مأخوذة من مؤلفاته مثل عائد الصلة، والتاج المحلى، مثل ترجمته "لمحمد بن عبد الولى الرعينى" المعروف "بابن العواد" (ت ٧٥٠هـ) شيخه المُكتب الذى تعلم القرآن فى مكتبه وعند ترجمته يذكر أنه أستاذه وجاره بقوله: "وهو أستاذى وجارى الألصق، لم أتعلم الكتاب العزيز إلا فى مكتبه، رحمة الله عليه"[٣٢]. وكذا الحال بالنسبة لشيخه "محمد بن على بن أحمد الخولانى" المعروف "بابن الفخار" (ت ٧٥٤هـ): "وهو أستاذى... ولازمته مدة، وعاشرته، وتوجه صحبتى فى الرسالة إلى المغرب"[٣٣] ويعدد من خصال "محمد بن على بن عبد الله اللخمى" ويعرف بالشقورى ويدعو له، ويذكر بأنه "صاحبنا طبيب دار الإمارة، حفظه الله"[٣٤].

وعند ترجمته للذين هم بقيد الحياة إلى عصره، يذكر بعض الأخبار عنهم مثل قوله: "وهو الآن قد نال منه الكبر"[٣٥]، "وهو الآن قاضٍ بها، مشكور السيرة"[٣٦]، "وهو إلى الآن، عدل بمدينة فاس، بحال تجلة وشهرة"[٣٧]، "وهو الآن بقيد الحياة"[٣٨].

ولم يتورع ابن الخطيب فى تتبع الأماكن وتحديد اتجاهاتها، حيث يقول فى دفن جثة الطاغية بطرة: "فجُعل فى تابوت خشب، ونصب بالسور المنازل من الحمراء، يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها"[٣٩]. وقد تفقد ابن الخطيب هذا المكان بنفسه بعد خمسين عاماً من دفنه فوجده قد علا من جراء رجم الصبيان إياه. "ومن الغريب أننى فى هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً، تفقدت ذلك المكان فى بعض ما أباشره... فألفيته وقد علا عليه كوم من الحجارة، رجم الصبيان

---

(٣١) ابن الخطيب: نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق: أحمد مختار العبادى، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص ١٠٣-١١٣.

(٣٢) الإحاطة، مج٣، ص ٢١.

(٣٣) نفسه، ص ٢٣.

(٣٤) نفسه، ص ١٣٦.

(٣٥) الإحاطة، مج٣، ص ١١٩.

(٣٦) الإحاطة، مج١، ص ٥٩.

(٣٧) نفسه، ص ٧٢.

(٣٨) نفسه، الصفحات، ٥٥، ٨٢، ٩٤.

(٣٩) الإحاطة، مج١، ص ٢٠٨.

إياه" [٤٠]. وعند ذكره لقبر "محمد بن عبد الرحمن التميمى ابن الحلفاوى" (ت ٧١٥هـ) يحدده بقوله: "وقبره بباب إلبيرة عن يمين الخارج إلى مقبرة العسال، معروف هنالك" [٤١]. كذلك وصف جنة العريف بقوله: "الجنة المنسوبة للعريف،.... وهى المثل المضروب فى الظل الممدود... يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع" [٤٢].

وعند ذكره لعامر بن محمد بن على الهنتانى يقول: "قدمت عليه بمحله من الجبل،... مستجيراً حماهم، فبلوت من بره، وبر الرئيس الندى عبد العزيز أخيه،... ما تقصر عنه همم الملوك، وتقف دونه آمال الأشراف" [٤٣]. ومما يدل على مشاركة ابن الخطيب فى الترتيب للحرب حيث يقول: "واستركبنا الجند... وعمرنا الأبراج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق،.... وتفقدنا البلد" [٤٤].

كما يذكر حادثة مقتل أبى الحجاج يوسف يوم عيد الفطر عام ٧٥٥هـ، حيث ذكر: "واحتمل إلى منزله مرفوعاً فوق رؤوسنا على الفوت، ولم يستقر به إلا وقد قضى رحمه الله" [٤٥]. وعن الوظائف التى أسندت لابن الخطيب فى عهد السلطان "محمد الخامس" يذكرها بقوله: "وجدد لى الرسوم الوزارية، من الوقوف بين يديه فى المجالس العامة،... وأجريت له رسم العرض والإنشاء من جملة ما ناطه بى من الوظائف" [٤٦].

([٤٠]) نفس المصدر والصفحة.

([٤١]) الإحاطة، مج٣، ص ٢٠٦.

([٤٢]) اللمحة البدرية، ص ١٢١.

([٤٣]) الإحاطة، مج٤، ص ١٨٤.

([٤٤]) الإحاطة، مج٢، ص ٤١.

([٤٥]) اللمحة البدرية، ص ١١٠.

([٤٦]) نفسه، ص ١١٥، ١١٦.

خاتمة البحث

أثبتت الدراسة أن المشاهدة والمعاصرة، من المصادر التى أمدت ابن الخطيب، بمادة حسنة من الأخبار والأحداث والمشاهد. لهذا فإن ابن الخطيب يعتبر شاهد عصره فى الكثير من الأحداث التى يسجلها من واقع ما شاهد، بل من واقع ما شارك به وعاصره، ويتجلى ذلك فى حديثه عن شيوخه الذين تتلمذ عليهم، وعاين أحوالهم.

أثبتت الدراسة أن المادة التاريخية التى اعتمد عليها ابن الخطيب من واقع المشاهدة والمعاينة، جاءت مصطبغة بأحاسيسه وآرائه تجاه الحدث الذى يسجله، أو تجاه الشخصية التى يترجم لها. فعند ترجمته للسلطان محمد الخامس "الغنى بالله" - سلطانه الملازم له - يثنى عليه ويصفه بأحسن الصفات، وعلى الجانب الآخر، نجد حديثه عن السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج وهو الذى جرت لابن الخطيب محنة قاسية على يديه، حيث اصطبغت لغة ابن الخطيب، بمشاعر البغض والكراهية الشديدة لهذا السلطان.

أثبتت الدراسة تنوع موارد ابن الخطيب فى كتاباته التاريخية، والتى تمثلت فى العيان والمشاهدة، حيث تهيأ لابن الخطيب بحكم عمله فى البلاط الغرناطى، فرصة كبيرة للحصول على المعلومات من منابعها الأصلية، الأمر الذى أضفى على علمه التاريخى ثقة ومصداقية، جعلته من أهم المصادر التى تؤرخ لبنى نصر فى هذه الفترة.

إن المعاينة تدل على منهج سليم من مناهج كتابة التاريخ، فالمؤرخ لا يكتفى بالسؤال والاستخبار فقط، بل يعاين ويشاهد المشاهد والآثار والمواقع على أرضها الأصلية - وهو ما فعله ابن الخطيب من تفقد للأماكن - حيث تمتزج هنا المعاينة بالمعرفة، فتتكون من ذلك الحقيقة التاريخية التى ينشدها المؤرخ.

وأخيراً فإنه يجب الحذر بشأن كتابات المؤرخين المعاصرين للأحداث، لأن لها عيوبا جسيمة بالرغم من مميزاتها، فقد تكون ستاراً يمنع المؤرخ من قول الحقيقة، ويغض بصره عن رؤية الأمور على وجهها الصحيح، تبعاً لاعتبارات تتصل بالتقرب إلى الحكام، ومصانعتهم، والخوف منهم، وتبعد المؤرخ عن العدالة، وتسكت لسانه عن النقد النزيه، والحكم الصحيح على الأشياء، حرصا منه على التقرب من ولاة الأمور.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- **إسماعيل بن الأحمر** (إسماعيل بن يوسف ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م).

١- نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.

- **ابن حيان** (أبو مروان حيان بن خلف ت ٤٦٩هـ/ ١٠٧٨م).

٢- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود على مكى، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥.

- **ابن الخطيب** (لسان الدين ابو عبد الله السلمانى ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م).

٣- الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف على طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، (٤ أجزاء).

٤- اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨.

٥- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق: أحمد مختار العبادى، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).

٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٧، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

٧- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦ (سلسلة الذخائر).

- **المقرى** (أحمد بن محمد التلمسانى ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م).

٨- نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨ (٨ أجزاء).

٩- أزهار الرياض فى أخبار عياض، تحقيق: على عمر، ج١، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٠.

ثانياً: المراجع:

- **السيد عبد العزيز سالم:**

١- التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر ١٩٦٧.

- **حسين مؤنس**

٢- تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، ط٢، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٦.

- **محمد عبد الغنى حسن**

٣- التاريخ عند المسلمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

- **مصطفى الشكعة**

٤- المغرب والأندلس، ط١، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٨٧.

ثالثاً: الدوريات العربية:

- **أحمد مختار العبادى**

١- الإسلام فى أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، مج١٠، ع٢، الكويت، سبتمبر ١٩٧٩.

- **رضا عبد الحكيم رضوان**

٢- أدب الرحلات وعلم تقويم البلدان فى التراث الإسلامى، مجلة تراث، ع ٥١، الإمارات، فبراير ٢٠٠٣.

- **شوقى ضيف**
٣- لسان الدين بن الخطيب الكاتب، دراسات عربية وإسلامية، ط١، الجامعة الأمريكية فى بيروت، المطبعة الكاثولوليكية، لبنان، ١٩٨١.
- **عبد السلام الهراس**
٤- ابن الخطيب المكرم بالمغرب ومعاناته، مجلة الفيصل، ع٣٧٧، السعودية، ديسمبر، ٢٠٠٧.

- **عبد الله كنون**
٥- الشعر الأندلسى، مجلة المجمع العلمى العربى، ج١، مج ٣١، دمشق، ١٩٥٦.
- **لويس سيكودى لوثينا**
٦- وثائق غرناطية لم تنشر بعد، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مج٤، مدريد، ١٩٥٦.
- **ليفى بروفنسال**
٧- مؤرخو الشرفاء، ترجمة: عبد القادر الخلادى، مجلة دعوة الحق، ع١، السنة ١٧، المغرب، ١٩٧٥.
- **مايا شاتز ميللر**
٨- ابن خلدون ومؤرخو القرن ١٤، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ابن خلدون (البحر المتوسط فى ق ١٤م) معرض بالقصر الملكى، إشبيلية، اسبانيا، سبتمبر، ٢٠٠٦.

ملخص البحث

شهد القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، ازدهاراً واسعاً، ونضجاً كبيراً فى الفكر والأدب، وفيه ظهرت طائفة من أكابر المؤلفين والمفكرين والشعراء والمؤرخين، وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل، فهو أكبر كاتب أبدعته الأندلس فى عصورها الأخيرة.

تعددت مصادر تدوين التاريخ عند ابن الخطيب، وتنوعت موارده، فكان منها المصادر المباشرة والتى تتمثل فى نقل الخبر حياً، عن طريق المشاركة فى الحدث، أو مشاهدته، أو الوقوف على آثاره، وهو ما يسمى بالمشاهدة والمعاصرة فالتأريخ لأحداث العصر الذى يعيش فهي المؤرخ تجعله قادراً على تصويرها بألوانها الطبيعية.

وقد تهيأت الفرصة لابن الخطيب، حيث كان شاهد عصره فى الكثير من الأحداث والتى سجلها من واقع ما شاهد، وشارك به وعاصره. ففى ترجمة السلطان محمد الخامس "الغنى بالله" الذى تولى ابن الخطيب له منصب الكتابة ثم الوزارة، يرصد فيها ابن الخطيب أحداثاً كثيرة منيت بها الدولة النصرية، وتمتلئ الترجمة بالوثائق السياسية والمراسيم السلطانية. كذلك ترجم ابن الخطيب لمن عاصرهم من شيوخه، حيث يثنى عليهم، ويعدد من خصالهم كما يتتبع الأماكن، وتحديد اتجاهاتها فى مؤلفاته التاريخية.

Summary of the Research

The eighth century AH / fourth century AD witnessed spacious progress and large maturity in thought and literature. In this era, a range of the great authors, thinkers, poets, historians has appeared and from among this huge crowd is Ibn Al Khatib who is considered the largest writer produced by Andalusia in its recent eras.

The sources and resources of Ibn Al Khatib for recording history multiplied and varied including the direct sources which representing in transferring the news alive by participating in the event, watching it or knowing its effects, the matter which is called the observation and contemporary as the historiography of the events of era in which the historian live enable him to depict them with natural colors.

The opportunity was ripen for Ibn Al Khatib where he was his witness of his era in a lot of events which were recorded by him from reality of what he saw, from reality of what he participated and was contemporaneous with. In the translation of Sultan Mohammed V "The rich by help of Allah" for whom Ibn Al Khatib assumed the position of writing then the ministry, Ibn Al Khatib observed through this translation many events suffered by the State Nasrid, and the translation is filled with the political documents and royal decrees.

Also, Ibn Al Khatib translated to whom he was contemporaneous with of his Skeikhs where he gives praises to them and clarifies their qualities and he also traces the places, and identifies their directions in his historical writings such as his mentioning of graves and gardens.